

المحاضرة الثانية: الاستعمار البريطاني في افريقيا واسيا

د- **الكشوفات الانجليزية:** يمكن حصر حملات الكشف الجغرافي التي قام بها الانكليز في تلك الفترة التنافسية من تاريخ الكشف في حملتين فقط هما حملة عام 1497 حيث تم الوصول الى الشواطئ امريكا الشمالية عند نيوفينلاند، وحملة سنة 1498 إلى فلوريدا مما أدى بالإنجليز إلى استعمار جزء كبير من امريكا الشمالية. لقد أصبحت بريطانيا مع ذلك سيدة البحار الجديدة حيث تغيرت موازين القوى بفضل الثورة الصناعية والانقلاب الذي أحدثته في تغيير المفاهيم والأسس الاقتصادية العالمية إنه بحق عصر التصنيع.

تطلعت بريطانيا منذ القرن السادس عشر إلى بسط نفوذها على البحار الشرقية والهند، وقد حققت هذا التطلع بمساعدة العوامل التالية:

- وضعية العامة في الهند نفسها، حيث تفككت وحدتها وساد التنافس بين أجزائها. يعتبر العامل الاجتماعي في الهند من الأسباب التي أوقعت هذا البلد في الاستعمار وذلك بسبب التركيبة البشرية المعقدة فمن حيث الأجناس تعدد الأعراق والقوميات أدى إلى صراعات طائفية أضعفت قدرة هذا الشعب وأضعفته ضف إلى ذلك تحالف بعض القوميات مع الأعداء ضد قوميات أخرى الأمر الذي سهل التدخل الأجنبي.

- من حيث الديانات: تعدد الديانات الكونفوشسية، البوذية، المجوسية، الهندوسية، الاسلام... وهي في صراع دائم وحروب طائفية أبعدت الهند عن الأمان وسببت له المتاعب وجلبت له الأخطار.

- انتشار الطبقة وانعدام الانسجام الاجتماعي ووجود فئة عريضة من المجتمع الهندي منبوذة مهمشة ومن هنا ما ابعده المجتمع الهندي عن الوحدة والانسجام والامان.

- كثرة عدد السكان في الهند جلب الأطماع للهند باعتبارها سوقا استهلاكية كبيرة وهذا ما كان يبحث عنه الاستعمار.

- الانتصار الحربي الذي حققه الأسطول البريطاني على الأسطول الاسباني في معركة الارماد سنة 1588 حيث تحطمت على إثرها قواة اسبانية بحرية.

- تأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية التي نافست اقرانها الهولندية والفرنسية على النفوذ في الهند والبحار الشرقية.

- ظهور الشركة المتحدة الانكليزية لتجارة الهند، وقيمها على أساس متينة اضعفت من النفوذ الفرنسي والهولندي في الهند الأمر الذي أسفر عن إفلاس الشركة الفرنسية وتدهور أوضاع الشركة الهولندية.

نشوء الامبراطورية البريطانية في العالم الجديد:

شرعت كل من بريطانيا وفرنسا في التوسع عبر امريكا في آن واحد تقريبا وقد تولدت الرغبة لدى الانكليز باستعمار العالم الجديد نتيجة الأسباب التالية:

- ضعف الموارد الاقتصادية لعامة الشعب وتفشي البطالة بين صفوفها نتيجة ضيق رقعة الأرض التي تمتد عليها الجزر البريطانية.

- الاضطهاد الديني الذي تعرض له آلاف البريطانيين الذين اعتنقوا مذهب البيور يتاني، في عهد الملك جيمس الأول 1603-1625م مما اضطر هؤلاء إلى الفرار بمذهبهم إلى العالم الجديد.

- تدني قيمة الذهب والفضة في انكلترا بسبب تدفقهما من العالم الجديد.

- الرغبة في منافسة الاسبان الذين كانوا يضمرون العداء الشديد للانكليز.

- شدة الروح العدائية بين فرنسا وانكلترا ومحاولة كل واحدة منهما سبق الأخرى في السيطرة على موارد التجارة الخارجية.

هـ - **الكشوفات الفرنسية:** جاءت الكشوفات الفرنسية متأخرة بعض الشيء بالقياس لكشوفات كل من الانجليز والبرتغاليين والاسبان، وتركت نحو امريكا الشمالية حيث تم اكتشاف كندا التي اسس الفرنسيون فيها اول مستعمرة لهم سنة 1613. أما مدينة كوبيك فقد اسوسها على

ضفاف نهر سان لوران سنة 1608، وفي سنة 1662 اكتشفوا نهر المسيسيبي وانشأوا مستعمرة لويزيانا الفرنسية ويمكن القول أن المكتشفات الفرنسية بقيت ضعيفة، ولم يمكن الحفاظ عليها لأن فرنسا اتبعت فيها سياسة استعمار الاراضي الواسعة. كما انها لم ترسل أو تهجر الايدي العاملة الفرنسية الكافية لاستيطانها ولم تضع جيوشا قوية في مستعمراتها آنذاك للمحافظة عليها

النفوذ الفرنسي في الهند والبحار الشرقية:

- تأسست شركة الهند الشرقية الفرنسية في عهد الملك هنري الرابع عام 1604م وقد سعت هذه الشركة لبسط نفوذها على البحار الشرقية وساعدتها على ذلك العوامل التالية:
- تدعيم النفوذ الفرنسي في المحيط الهندي بواسطة مراكز عسكرية وتجارية كمدغشقر وما جاورها.
- اتخاذ الفرنسي في المحيط الهندي بواسطة مراكز عسكرية وتجارية كمدغشقر وما جاورها.
- تشجيع التنافس المحلي في الهند.
- استغلال فرنسا لرغبات الأمراء الهنود التوسعية على حساب بعضهم البعض حيث كانت فرنسا تسارع إلى تأييد أحد الأطراف المتنازعة مقابل تنازل ذلك الطرف للفرنسيين عن بعض أراضيه، وبذلك تكسب أراض تضمها إلى ممتلكاتها.
- حصول الشركة الرئيسية على حق المتاجرة في الشواطئ الهندية بعد بسط نفوذها على كاليكوت.

المرحلة الثالثة: شهدت مرحلة التحالف التي مرت بها الحضارة الاوربية في دورتها الثانية، توسعا استعماريًا لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية والقرن التاسع عشر هو بحق قرن الامبراطوريات الاستعمارية بالمعنى التام للكلمة، والواقع أن التطور السريع للرأسمالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة للتقدم التقني والعلمي وخاصة الآلة البخارية وما نجم عن ذلك من ازدياد الانتاج وتشبع السوق الداخلية، والحاجة إلى أسواق جديدة خارجية

لتصريف الانتاج وتوظيف الأموال المتراكمة من الفترات الاستعمارية السابقة على شكل فائض قيمة تاريخي، كل هذا ولد هجمة استعمارية جديدة تتسم بالشراسة والبشاعة شملت بشكل خاص مجمل القارتين الاسيوية والافريقية، وأدى كل ذلك إلى حصول كل من انكلترا وفرنسا والمانيا واليابان على مستعمرات تفوق في أهميتها وفي مساحتها ما حصلت عليه الدول الاستعمارية القديمة كهولندا والبرتغال في القرون السابقة مجتمعة.

بداية القرن العشرين كانت حفنة صغيرة من الدول الاوروبية قد انجزت اقتسام العالم وأحالت إلى العبودية القسم الأكبر من الانسانية، وهكذا ففي مدة لا تزيد عن خمسين سنة ارتفعت مساحة المستعمرات البريطانية من 5,6 مليون كلم إلى 5,33 مليون كلم، أي ما يعادل ربع مساحة الكرة الارضية، كما ازدادت فرنسا خلال ذلك مساحة مستعمراتها من 5,0 مليون الى 10 ملايين كلم. وفي افريقيا التي لم تكن المستعمرات الاوروبية تبلغ خلال السبعينات من القرن التاسع عشر سوى عشرة بالمائة من مساحتها الاجمالية، فإنها اصبحت بكاملها مقسمة بين الدول الاوروبية في نهاية ذلك القرن أي خلال ثلاثين عاما فقط.

وللوهلة الأولى يمكننا أن نلاحظ أن كثافة التسابق من أجل الحصول على المستعمرات خارج حدود القارة الأوروبية قد بدأت منذ منتصف القرن الماضي وتحديدًا بعد تحقق الوحدة الألمانية. إن الأحداث التي شهدتها القارة الاوروبية منذ الخمسينات القرن التاسع عشر والتي رأسها الوحدتين الايطالية والالمانية وضعف الدولة العثمانية وظهور بعض الدول الجديدة الصغيرة التي اصبحت تطمح في جزء من المستعمرات جعل تلك الفترة تتسم بتلك الحملة المحمومة والمسعورة من التسابق وللهاث وراء استعباد الشعوب واستنزاف ثروتها وخيراتها وبعد ان حاولت كل من بلجيكا والمانيا الحصول على بعض المستعمرات في افريقيا كحق طبيعي لهما في الاستفادة من هذا العالم المغلوب على امره، كما هو وضع كل من فرنسا وبريطانيا المستعمرتين التقليديتين بدأت تتحد معالم صراع مقبل خطير في ابعاده، غريب في اهدافه كارثي في نتائجه فنادت الدول الاوروبية الاستعمارية للاجتماع في برلين عام 1885 وبرغبة من بسمارك لحل هذه الازمة الاستعمارية التي راح عدم حلها يندب بخطر التنازع الدموي خاصة في ظل وجود قوى صاعدة لا يمكن التخفيف من حدة طموحاتها بدو

اشراكها ولو نسبيا في حصة من المستعمرات. وقرر التحالف الاوروبي خلال المؤتمر تخفيف الصراع والتوزيع المغنم ووضع مبدئا قانونيا حول صحة الاحتلال الاستعماري وهو الاحتلال الفعلي، ومبادئ قانونية اخرى كالمساواة الاقتصادية وحرية الملاحة في نهري الكونغو والنيجر...الخ.

وفي سياق هذه الحملة التي استهدفت الاجهاز على ما تبقى من ارض خارج نطاق السيطرة الاستعمارية الاوربية او امتداداتها الحضارية الرأسمالية، كالاستعمارين الياباني والامريكي لجأت بعض الدول إلى تغطية العملية الاستعمارية تحت اسماء مختلفة، فابتدعت مؤسسة الحماية الدولية التي طبقت على تونس والمغرب الاقصى بالنسبة لفرنسا عامي 1881 و1912 على التوالي، وعلى كوريا بالنسبة لليابان، وعلى كل من مصر واليمن وبعض مناطق الخليج العربي بالنسبة لبريطانيا، وعقب الحرب العالمية الأولى تم ابتداع مؤسسة الانتداب- حسب ما ورد في ميثاق عصبة الامم- الذي قسم إلى ثلاثة انواع هي: أ و ب و ج، يطبق كل واحد على مجموعة من الشعوب بحسب مستواها الحضاري حسب ما قرره العقليّة الاوربية. فالنوع أ، طبق على الاراضي التي انسلخت عن الدولة العثمانية والنوع ب طبق على المستعمرات التي انتزعت من المانيا وسلمت لغيرها من الدول كأستراليا ونيوزيلندا. والنوع ج طبق على مستعمرة ناميبيا في جنوب غرب افريقيا. كما انه بعد الحرب العالمية الثانية وحسب ما نص عليه ميثاق الامم المتحدة، تم ابتداع مؤسسة الوصاية التي انتقلت بموجب قوانينها، الدول الواقعة تحت الانتداب إلى دول واقعة تحت الوصاية وأن كان الوضع بعد الحرب الثانية كان قد دخل مرحلة جديدة في كل شيء جعلت النظم التقليدية للاستعمار اثرا بعد عين.

اما في القارة الامريكية فقد نادت الولايات المتحدة الامريكية التي نمت وتطورت فيها الرأسمالية بشكل مثير بمبدأ مونرو الذي سعة بموجبه إلى اغلاق القارة في وجه التوسع الاستعماري الاوربي، اي انها احتكرته لنفسه ثم اضافت اليه مبدأ الباب المفتوح فيما يتعلق بالشرق الاقصى، مساهمة على اساسها في التوسع الاستعماري في هذا التوسع الاستعماري في هذا الجزء من القارة الآسيوية.

وفي الختام فإن مما يجدر ذكره أن هذا السباق الرأسمالي العالمي لاقتسام العالم الجنوبي تحت الزعامة الأوروبية، أدى الى خروج بعض الدول الرأسمالية الناشئة مثل ألمانيا وإيطاليا واليابان بحصص ضئيلة لم تشبع طموحها حسب ما فرضتها قسمة مؤتمر برلين، مما دعاها إلى المطالبة بإعادة الاقتسام في محاولة لتوسيع النطاق حصصها من المستعمرات، وكانت هذه الاهداف الباطنة سببا رئيسيا وجوهريا يقف وراء اندلاع الحربين العالميتين الأولى ثم الثانية بمبادرة ألمانيا، وبالتالي فإن هاتين الحربين وماسبق كلا منهما كان بمثابة توجيه للسفينة الأوروبية باتجاه الأعداد للصدام الدموي على خلفية التنازع على المغنم والاملاك والمستعمرات رغم ما اعترى هاتين الحربين من مداخلات عديدة اسهمت بدورها في نقل الحضارة الأوروبية الاستعمارية المادية الصهيونية إلى اخر مراحلها التي لازلنا نعيشها لغاية الان، وهي المرحلة الانتقالية التي سنستشف في ضوء معطياتها وحيثيتها المختلفة آفاق حلول حضاري جديد مقبل بدأنا نلمح احتمال مقومات التحول باتجاهه منذ سنوات قليلة

3- الأسباب والعوامل المساعدة:

اجتمعت جملة عوامل وأسباب، في نهاية العصور الوسطى، لتعطي الفعل الإستعماري معاني جديدة كالهيمنة والإستغلال، مما سيجعل من الإستعمار إحدى الدعائم الأساسية لسياسات الكثير من الدول الأوروبية.

تندرج هذه العوامل، ضمن التحولات الكبيرة التي عرفتھا المجتمعات الأوروبية وخاصة الغربية منها، في نهاية العصور الوسطى، والتي يمكن إيجازها في:
ففي المقام الأول لم يحل عام 1880 حتى كان الأوروبيين، بفضل جهود المستكشفين والمبشرين، يعرفون عن إفريقيا ودقائق تضاريسها ومواردها ونقاط القوة والضعف في دولها ومجتمعاتها أكثر بكثير مما كان الأفريقيون يعرفون أوروبا. ومن ناحية أخرى كان خوف الأوروبيين من أفريقيا قد قل كثيرا عما كان عليها في النصف الأول من القرن التاسع عشر وذلك بسبب التغيرات الثورية التي طرأت على عالم الطب والممارسات الطبية ولاسيما اكتشاف المفعول الوقائي لكينا ضد مرض الملاريا.

ومن ناحية ثالثة كانت من موارد أوربا المادية والمالية تفوق بمراحل موارد إفريقيا فعلى حين أن أوروبا كانت قادرة على إنفاق الملايين من الجنيهات في حملات تشنها فيما وراء البحر كانت إفريقيا عاجزة عن التصدي لأي جبهة عسكرية طويلة الأمد مع أوروبا.

ومن ناحية رابعة فقد سادت الفترة التي تلت الحرب الروسية التركية عام 1877-1878 حالة من التوازن الدولي السياسي أدت إلى السلام والركود في أوربا على حد تعبير المؤرخ البريطاني ج. هولاند روز، بينما اتسمت الفترة ذاتها في إفريقيا بالصراع والتنافس بين الدول الإفريقية وفي داخل كل دولة شعب الماندنغو في أفريقيا الغربية ضد الشعب التوكولور، وشعب الأسانتي ضد شعب الفانتي وشعب الباجندا في أوغندا ضد شعب البانيور في زمبيا وشعب الباتورو ضد شعب البانيورو، وشعب الماشونا ضد الشعب النديبيلي.

وهكذا كان باستطاعة أوروبا، وقد تحررت من المشاغل الخطيرة داخل حدودها، ان تركز جهودها على الأنشطة الاستعمارية بينما كانت الدول والبلاد الإفريقية تعاني من توزع الانتباه في القضايا الهامشية ناسية مصيرها. فضلا عن ذلك فإنه على الرغم مما كان بين الدول الأوروبية من خلافات القضايا الإمبريالية والاستعمارية، كانت أطول فترة تقسيم أفريقيا وحتى عام 1914 تتوصل إلى فض هذه الخلافات دون اللجوء إلى الحرب، باستثناء الصراع الذي نشب بين البريطانيين والبوير في جنوب أفريقيا.

وعلى الرغم مما نشأ بينها من تنافس وما شب من أزمات فإن روح التضامن القوية بين الدول الأوروبية التي تقاسمت أفريقيا لم تعبد خطر نشوب حرب بينهما فحسب بل حلت كذلك بين حكم الأفريقيين تزامنت فترة الغزو الاستعماري لأفريقيا مع إحراز تقدم تكنولوجي في صناعة الأسلحة ترتبت عليه تغيرات جذرية في فنون القتال مكنت الأوروبيين من تحقيق ساحق على المقاومة التي أبدتها المحاربون الأفريقيون. ذلك أن إدخال البنادق التي تعمر من مغاليقها والخرابيش المعدنية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد حسن كثيرا من قدرة الرماة من حيث مدى الإطلاق ودقته وسرعته وسجل نهاية سلاح الفرسان بوصفة قوة ضاربة. والأهم من ذلك ما جد من تطورات على المدافع الرشاشة باختراع رشاشات (الصفحة السابقة) عام 1862 ورشاشات مكسيم (إلى اليمين) عام 1883. ولم يكن باستطاعة

بأكبر الجيوش الأفريقية وأشدها تفانيا – وليس لديها سوى بنادقها البالية (التي تعمر من فوهاتها) وفؤوس وحربها – أن تتصدى للقوى الأوروبية الغازية بحسن تنظيمها وضبطها وتدريبها وبما أوتيت من أسلحة جديدة وفتاكة.

ففي الوقت الذي كانت فيه الشعوب الأفريقية تراهن وتسعى إلى ضرب دولة أوروبية بدولة أخرى أوروبية. وطوال هذه الفترة كانت الدول الأوروبية المختلفة تعتدي على دول أفريقية واحدة تلو أخرى دون أن يخطر على بال الدولة أوروبية أن تنتصر لدولة أفريقية ضد دولة أوروبية أخرى.

أما الدول الأفريقية فكانت تفتقر إلى روح التضامن والوحدة والتعاون لدرجة أن دولا منها لم تتوان عن دعم العدوان الأوروبي. فقد تحالف شعب الباجندا مع البريطانيين ضد شعب البانيورو، وتحالف شعب الباروتسي أيضا معهم ضد شعب الناديبيلي بينما تحالف البمبارا مع الفرنسيين ضد شعب التوكولور.

وأخر هذه العوامل وأشدها حسما بطبيعة الحال هو تفوق الأوروبيين التنظيمي والعسكري الكاسح على أفريقيا. فعلى حين أن أوروبا كانت تمتلك جيوشا محترفة جيدة التدريب، فما أقل الدول الأفريقية التي كان لديها جيوش دائمة وأقل منها الدول التي كان لديها جيوش محترفة. وعلاوة على ذلك كان بإمكان الأوروبيين الاعتماد على المرتزقة والمجندين الأفريقيين لتأمين ما يحتاجون إليه من تفوق عددي.

وأهم من ذلك كله أن الدول الامبريالية كانت قد أجمعت بمقتضى اتفاقية بروكسل لعام 1890 على ألا تبيع الأسلحة للأفريقيين، مما ترتب عليه أن معظم الجيوش الأفريقية لم تكن تملك من الأسلحة سوى البنادق القديمة الطراز مثل المصونات والبنادق التي تعمر من فوهانها، ولم يكن لديها أية مدفعية ثقيلة أو أساطيل بحرية.

ومن جهة أخرى كانت الجيوش الأوروبية تتمتع بدعم أساطيلها البحرية وتمتلك أحدث الانواع المدفعية الثقيلة والبنادق المتعددة الطلقات وبخاصة رشاشات جاتلنج ومكسيم، فضلا عن السيارات بل الطائرات في مراحل الغزو الاخيرة. ومن الأمور ذات الدلالة أن الزعيمين

الأفريقيين اللذين نجا في الحاق بعض الهزائم بجيوش الأوربيين، وهما سموري ومنليك، كانا الوحيدين اللذين استطاعا الحصول على بعض الاسلحة الحديثة. ويخلص الشاعر البريطاني هيلير بيلوك في بيتين من الشعر تفوق اوربا العسكري الساحق على افريقيا (مهما حصل فلدينا رشاشات مكسيم وليست لديهم).

وبالنظر إلى كل المزايا الاقتصادية والسياسية وعلى الأخص المزايا العسكرية والتقنية التي كانت اوربا تتفوق بها على افريقيا، فقد كان الصراع أبعد ما يكون عن التكافؤ وكانت نتائجه محتومة، ومجمل القول أن توقيت الغزو لم يكن ثمة أنسب منه بالنسبة لأروبا ولا أسوأ منه بالنسبة لإفريقيا. ويمكن تلخيص جملة تلك العوامل كالآتي:

- تفسخ النظام الإقطاعي وازدياد قوة الدول ومن ثمة نفقاتها.
- تطور قوي الإنتاج وميلاد الحاجة إلى المعادن الثمينة، بعدما استنفذت معظم مناجم أوروبا.
- سيطرة الأتراك على مصر وغلقهم لتجارة المتوسط مما سيضطر الأوربيين إلى البحث عن طريق آخر للوصول إلى مصادر التوابل، التي ازداد الطلب عليها بفعل تطور التعودات الغذائية، التي أفرزتها النهضة؛
- تطور علوم وفنون ركوب البحر (الخراطة، البوصلة، بناء السفن، تنظيم الرحلات الكبيرة... الخ)، مما سيساعد على بداية عصر الكشوفات الجغرافية الكبيرة (اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد عام 1492 وفاسكو دو غاما للطريق البحري المؤدي إلى آسيا عبر جنوب إفريقيا عام 1498... الخ). وهكذا، وباكتشافهم للطريق البحري المؤدي إلى آسيا وكذا للعالم الجديد، سيكشف الأوروبيون عن نواياهم في نهب خيرات القارات الأخرى، وذلك ما سيؤدي إلى ظهور أولى إمبراطوريتين استعمارييتين في الفترة الحديثة: البرتغال وإسبانيا. وتدرجيا أصبح البحث عن المواد الأولية وممارسة التجارة ثم النية في مراقبة الطرق التجارية، أهم أسباب التوسع الإغريقي.